عراك في غير معترك

وحكايات أخرى ...

للأستاذ محمد متولي

ذات صيف، إذ كنت صبياً فى المدرسة الابتدائية، وكنت فى الريف أقضى عطلتى، صادفت الليلة الختامية الاحتفال بمولد أحد الأولياء هناك، وذهبت أجوس خلال حلقات الذكر ليلتئذ، فإذا (مجذوب) ناحل هزيل، مأخوذ بشعور ما، يهذى بما هو أشبه بالدمدمة أو « الملعثمة » منه إلى الكلام الواضح المفهوم، بينما وقف بجانبه فتى شاب يصلح من شأنه وهو يقول له: « وحِّد الله وحد الله ... » ودفعنى فضول المعرفة فرفعت قامتى القصيرة إلى الفتى وسألته: « الراجل دا بيقول إيه ؟ » فأجابنى فى ابتسام وإشفاق أنه يتكلم « اللاوندى »

ولقد كنت أنتظر من صديقى الأستاذ زكى طليمات، بعد أن لفتّه فى مقالى السابق إلى وجوب « موضوعية » كلامنا، كنت أنتظر من هذا الصديق أن يكون أكثر لباقة فلا يدفعه الدكتور بشر فى المزالق فيندفع وينزلق ويتورط فى مسائل علمية وفنية، ويشط بعيداً، ويجيئنا بحكايات متناثرة متنافرة مشحونة بالزيف والبهرج، حتى لقد غَمُض فحسبته، أول الأمر، يقصد بألفاظه إلى رموز خاصة بنفسه، كما فى الصوفية؛ وصخِب فخلته يتكلم ذلك « اللاوندى » الذى سمعت فى حلقة الذكر منذ ربع قرن من الزمان، وجئت أردد له قول صاحبي الريفى: « وحد الله ... وحدّ الله ... »

* * *

كان العراك بين جبهتى بشر فارس والشاعر على محمود طه فى غير معترك، ولكن الأستاذ زكى لم ير هذا، لأنه لم يتفق معنا على أن « النقد الفنى » يجب أن يقتصر على تبيين قيمة « الصورة » التى يقدمها الفنان كإبداع له وحدته، بخلاف ما كان بين الجبهتين من خلط وتنابذ واتهام. إنما يتصور الأستاذ أنى قصدت بتقريرى أن « العراك كان فى غير معترك » كون رواية « مفرق الطريق » تافهة ممسوخة، وأنا لم أردْ غير ما رأيته من ضلال الجماعتين « أصول النقد » فليس ذنبي أن قصر فهمُ صديقى دون إدراك غرضى فى تلك العبارة، وهو قريب بيّن

وأحببت أن يكون العراك فى معترك، فبينت أن رواية بشر ليست من الرمزية فى شىء، كما دلّلت على أن الدكتور المؤلف لا يفرق بين « رموز الصوفية » و « رموز الفن »، مع أنهما عمليتان تختلفان « سيكلوجياً »؛ ولكن بشراً وزكيًّا عقدا جلستهما وقررا كتابة الرد على هذا الرأى، ولعل لذة المعرفة فاتتهما، أو لعل غريزة « حب الغلبة » غلبتهما فحجبت جمال المعرفة عن بصيرتهما، فنسيا موضوع الكلام وراحا يتفلسفان ويتمالآن!

وحدّ الموضوع كما قلنا – وكما يقرر « ريبو » – هو أن الرمزية فى الفن « تستخف بتمثيل العالم الخارجى تمثيلاً صادقاً ... فإذا الناس والأشياء تمرّ دون أن تنطبع بزمان أو مكان، ولكنها تمضى وما ندرى أين حصلت ولا متى؛ فلا هى (تمت) بصلة لأى بلد، ولا هى تمثل عصراً بذاته ». والدكتور بشر يعرض علينا، فى مفرق الطريق، صورة عملية « تجرى حوادثها فى مصر فى أحد شوارعها، أمام صف من المنازل المنخفضة على

من السهولة بحيث يمكن أن يصير المرء بها وفيها خبيراً. ولهذا لا أفهم كيف يستطيع مواطنوك أن ينقدوا سياسة الحكومة وأن يوجهوها

المربى: إن المواطنين لا يستطيعون طبعاً أن يفهموا دقائق الأمور، ولا أن يحددوها أو يديروها، ولكنهم يستطيعون أن يقرروا اتجاهات السياسة العامة التى يجب أن تتبعها الحكومة

أفلاطون: أخالفك فى هذا. لأن الاتجاهات العامة من المكان والأهمية بحيث تحتاج إلى فيلسوف لحل معضلاتها التى هى معضلات الحرب والسلم، والاعتداء والدفاع، ولكن مهما يكن من الأمر فلنترك بحث السياسة الخارجية، ولنرجع إلى موضوع إصلاحاتكم فى التربية ونظمها. لقد ذكرت فى حوارك أن غايتكم المثلى فى التربية هى أن تكون عامة لكل أفراد الشعب، ولعلّى لا أكون بعيداً عن الصواب إذا قلت إنك تريد « أن تكون فرص التربية والتعليم للجميع سواء ». فما الذى تريد أن تصل إليه بهذا كله ؟!

(يتبع) عبد العزيز عبد المجيد

شكل المنازل التي تصاب في الأحياء القديمة » . فهل حاول أحد الفارسين أن ينقض هـذا التحديد الذي يجرد مسرحيتهما من صفة الرمزية ؟ !

اللهم لا شيء من ذلك ، ولـكن بشراً يدفع زكياً ليقول أشياء لامعة ، ويذكر أسماء رنانة بينها وبين مسئلتنا من البعد قدر ما بين الدكتور بشر ومفهوم الرمزية في الفن . وهذه الأشياء هي الحـكايات التي استنبتها الفارسان على هامش المسئلة ، والتي أتناولها الآن بالتفنيد للتدليل على ما ذهبت إليه من أن صاحبينا يجترئان ويتأملان كتب الفلسفة والفن بالاجتهاد ، ويقرآنها كما يقرآن روايات الجيب ـ مثلاً ـ فيزلآن ويقعان فيما يجب ألا يقع فيه المخلصون في طلب المعرفة

وإذن ندور حول الموضوع تمشياً مع منطق الأستاذ ظليات ونعتذر عن هذا اللغو لأستاذنا صاحب الرسالة ، ونعده ألاّ نعود إلى الـكلام « خارج الموضوع » مهما يقل بشر أو زكي أو غيرهما

* * *

١ — استهلّ زكي مناقشته بنص للمستشرق « بروكلمن » وساقه برهاناً على أن مسرحية بشر عمل أدبي ، وترجمة ذلك النص الدقيقة هي « نحن هنا في بداية تطور هو تجديد يمكن أن يؤثر في الحياة الأدبية ، بعد نضال عنيف » وهذا النص بذاته برهان على أن الرواية « محاولة » لجة ، إذا صدقنا أن « بروكلمن » يمكن أن يقدم « دراسة » لعمل أدبي في بعض صفحة من القطع المتوسط ، ولـكن الواقع أن هذا المستشرق يعرض المسائل عرضاً تاريخياً بسيطاً ، ثم هو كالأستاذ زكي لا يحسن النظر في الأشياء ويتورط في أحكامه ، لأن بشراً قدم روايته عملاً مطبوخاً وغير ناضج عام ١٩٣٨ فيما أذكر ، بعد أن قدم توفيق الحكيم « شهرزاد » عام ١٩٣٤ مثلاً رفيعاً للأدب الرمزي ، ليس في أدبنا وحده ، ولـكن في جميع الآداب ، فكيف لا نصف « بروكلمن » بالغفلة إذا اعتبر مفرق الطريق « بداية تطور » مع أننا قبل ذلك وصلنا إلى غاية الغاية برواية توفيق الحـكيم ؟ !

٢ — والمسألة عند زكي « محصورة فيما إذا كان بشر قد استلهم في كتابة مسرحيته... من (كذا) الفيلسوف « كانت » . أو هو استوحى فلسفة برجسون ، وهذا الحصر مرفوض لأنه لا معنى له عند من « يشعر » بمعنى الإيحاء أو الإلهام و « يعرف » طريق النظر في أية فلسفة ، وكذلك هذا الحصر ليس إلا لغاً حول الموضوع ورجوعاً إلى « الخناقة على اللحاف »

٣ — والأستاذ زكي يصف أسلوبه بأنه « أوضح وأدنى إلى الثقافة العربية » وأنا لم أعرف أني « مستشرق » وإذا كانت المصطلحات الفلسفية غريبة على ثقافته ، فليس هذا من خطئي ولا هو مما يدعوني إلى أن أسوق له عبارات مبتذلة كي يفقه قولي . وعلى أي حال ، كنا نحب أن نحمد الله لأنه « لم يغب عن ذهن زكي » التفريق بين « الصورة » و « الفكرة » في الفن ، لولا أنه عاد فقال إن « اقتصار الفن على الصورة أو الشكل لا يعني أن يكون هناك فن رفيع وفن رخيص ، وفن أصيل مبتكر وفن متبع مقلد ، وشاعر يسرق وكاتب يستمد » قال هذا فبدا لنا عقله كصندوق حروف ، ورأيناه هو كأنه « مطبعجي » يرص الحروف وهو لا يقصد من ورائها إلى معنى في نفسه محسوس ، ذلك أن الفن يجب أن يكون رفيعاً ، وإلا فهو تهريج لا نسميه فناً ، ويجب أن يفيض عن الروح طريفاً لطيفاً ، وإلا فهو شيء صناعي Technique لا حياة فيه ؛ أما عبارة الشاعر الذي يسرق والـكاتب الذي يستمد ، فقد نرجو إعادة حروفها إلى « الصندوق » إذا كان ممكناً ، فلا يقرؤها الناس فيسيئوا الظن بصديق المعروف من أهل الفن

٤ — ويحدثنا الأستاذ ظليات عن (شرائط الفن المقطوع بها) في المسرحية ، ويحددها بأنها (مراعاة بلاغة المرض لحوادثها وجودة الحبك لمشاهدها ، وبراعة الحوار ولطفه ، وعمق التفكير وانسيابه إلى أعماق النفس يكشف عن خفاياها) ؛ وهذا الحديث يذكرنا بذلك الطراز من نقاد المدرسة القديمة الذين يحتفظون بعدد من (الكليشيهات) يضيفونها إلى أسماء الشعراء والأدباء ، من غير نظر ولا تأمل ، فإذا الفرق بين شاعر وشاعر أن هذا (جزل الألفاظ) ، وأن ذاك (سلس الأسلوب) ، وأن الآخر (حسن الديباجة) . وزكي معذور في هذا ، لأنه يتصور الفن تصوراً (ميكانيكياً) لا أثر فيه للعاطفة ، فيبتدع تلك « الشرائط » ويقطع بها وحده ، ويحاول أن يفرضها علينا قبل أن يطبقها ، ولو استطاع تطبيقها لما انطبقت إلا على الرواية الفاسدة التي لا يمكن أن تصدر عن روح فنان ، وإنما يخرجها (مصنع تزييف)

٥ — ولقد كان الأستاذ زكي يستطيع أن يصغي بالتفلسف لو أنني أخذته إلى مجاهل ما وراء الطبيعة ، ورحت أحدثه في نظرية المعرفة عند « كانت » أو « برجسون » ، بينما نحن نتكلم في

مسألة فنية ، ولكني أردت أن أهديه سواء السبيل ، فأخذت بيده إلى علم الجمال الذي موضوعه الفن ، وبدلاً من أن يبهره هذا النور الجديد رأيته ، كالتلميذ الكسلان ، يركب رأسه ، ويأبى متابعتي ؛ بل رأيته أكثر من هذا يطالبني بأن أترك مصطلحات علم الجمال إلى ما يدعى أن رجال المسرح اصطلحوا عليه حتى يكون قولي قائماً على الدقة والإحكام في نظره . يطالبني بهذا الكفر ، وليته كان صادقاً ، فرجال المسرح لم يصطلحوا على شيء اسمه « الرمزية الفنية » ، وهذا الشيء لا وجود له إلا في « صندوق حروف » الأستاذ المخرج الممثل

٦ — وفي هذه الحزون ، يصل الأستاذ زكي إلى الهاوية السحيقة ، ويدفعه بشر ، ويسقط ، فإذا هو مبقور البطن مجدوع الأنف مصلوم الأذن ، ثم هو ، مع ذلك كله ، يأسف من أجلي رائياً لأني لم أتعقب « المراحل الحديثة التي مرّ بها علم النفس بعد العهد الذي ألف فيه « ريبو » ... » ولأني لم أعرف « أن علم النفس الذي أفادت منه الرمزية كثيراً قد دخل في طور جديد تبدلت على أثره أوضاع في الأدب عامة وفي الرمزية خاصة » ويعد الأسف والرثاء « يود » الأستاذ العالم أن نقف « على آراء علماء اليوم فيما كتبه « ريبو » خاصاً بالمخيلة ... وذلك كما وردت (كذا) في مؤلف كبير يدرس اليوم في جامعة السوربون بباريس » ويزيف علينا أن « وليم جيمس » يقول في هذا الكتاب : « يلوح لنا أن علم النفس عند ريبو في مسائل المخيلة والاختراع لا يزال تحت تأثير النظرية الآلية البسيطة الخاصة بتجزؤ الذهن إلى ذرات متجاورة » وأخيراً لا ينسى حضرته أن يصف وليم جيمس بأنه « الفيلسوف الأميركي المعاصر »

ولو أمكن إيجاد محكمة تحفظ كرامة العلم وتحاسب المستهترين بقدسيته وتعاقبهم على جناياتهم ، لو أمكن إيجاد هذه المحكمة وقدمنا لها هذا الكلام الذي يرسله صديقي زكي إرسالاً ، إذن لحكمت عليه بالحرمان الأبدي من القراءة والكتابة ، ولحكمت على الدكتور بشر بسحب شهادته بتهمة التحريض والإفساد

أما أنا فأؤكد الأستاذ زكي أني أعرف موضوعي لدرجة تسمح لي أن أصحح له ولشريكه تلك الأوهام التي يعيشان فيها ؛ فليسمع ، أو ليسمعا

(ا) « وليم جيمس » ليس معاصراً ، بل هو متوفى عام ١٩١٠ ، أي منذ ثلاثين عاماً ، بينما « ريبو » متوفى عام ١٩١٦

(ب) ألـ Traité de Psychologie (طبعة ١٩٢٣ ـ ٢٤ ذات الثلاثة الأجزاء) التي يعتمد عليها زكي وبشر أصبحت منسوخة لأنها تطبع الآن في تسعة أجزاء بزيادات وتفصيلات ، وقد ظهر الجزء الخامس منها عام ١٩٣٦ ، وظهرت قبيل الحرب أجزاء لا علم لي بها

(ج) لو أن الأستاذ زكي ذو عهد بالدراسة الجامعية لما قال إن كتابا يدرس بجامعة السوربون ، كما تقرر الكتب في المدارس الابتدائية والثانوية ، ولعرف أن أي كتاب يمكن أن يدخل الجامعة إنما ليقلب ويجرح ، حتى ولو كان مؤلفه زكي طليمات

(د) « ريبو » الذي لا يرضى زكي طليمات ، هو الذي عرف Dumas قدره فاختاره ليكتب مقدمة الـTraité ، واعترف بفضله فأهدى السفر إلى ذكراه بعد موته

(هـ) لا وجود لكلمة « المخيلة » ، ولا وجود لكلمة « الاختراع » في النص الذي ينقله زكي عن « وليم جيمس » . وإذا كان هذا النص مذكوراً في باب « الاختراع » فقد جاء في عرض « جيمس » لوصف العملية الفسيولوجية لتداعي الخواطر l'Association des Ideés عند « ريبو » (راجع ص ٢٠ في كتاب l'Imagination Créatrice) ، ولكن زكي يفتي فيما لا يدري فيضطر إلى تزييف هذا النص الذي يتعلق بمسألة « بسيكوفيزيولوجية » ولا يتعرض للظاهرة النفسية ذاتها ، والذي يدل على مكان فيلسوفنا العظيم ولكن من يقرأ ؟! قال « وليم جيمس »

La psychologie de Ribot à ce sujet nous semble encore très dominée par la conception automatique et simpliste de l'atomisme mental, bien qu'il ait insisté — ce qui le rangait parmi les novateurs à l'époque — sur ce fait que les etats associés ne sont pas juxtaposés, mais qu'ils « se modifient par le fait même de leur connexion »

(و) مفهوم علم النفس عند الأستاذ زكي شعبي خاطىء لا يزيد على ما نسمعه من بعض زبائن « قهوة بيرون » لأنه يفهم أن الرمزية « أفادت من علم النفس » والأمر بالعكس ، فهذا العلم الذي موضوعه ظواهر النفس هو الذي أفاد من وجود الرمزية .

٦ — وأنا لم أستنكر أن يحاول صديقي زكي أن يناقشني في مسائل الفن والفلسفة ، فهل هو يستكبر إذا فسرت له نصاً فلسفياً لم يفهمه فأفسد ترجمته ؟ (راجع النص الفرنسي وترجمة زكي ص ١٥٤٨ — العدد ٣٧٩ من الرسالة) رضي أو لم يرض